كان كما تقدم هو الوسيلة للتعبير عن العواطف قبل كل وسيلة ، فلم يتردد أبو نواس فى سلوك السبيل التى سلكها ابن أبى ربيعة من قبله ، سبيل الشعر القصصى أو القصص المنظوم شعراً

إن الناظر فى أدب العرب وتاريخهم لا يسعه إلا أن يرى هذه الحقيقة بارزة : حقيقة أنّ الشعر نال من المنزلة عندهم ما لم يبلغ عند سواهم حتى طغى على مادونه من ضروب الأدب ، وأن الأدب على إطلاقه بلغ لديهم مكانة طغى بها على ما عداه من الفنون وصبغ ثقافتهم بصبغته — برغم بعده عن معالجة الحالة السياسية والاجتماعية فكان كاتبهم فى التاريخ وتقويم البلدان وغيرهما من العلوم يتحدث عن الأدباء ويرجع إلى محفوظه من الأدب ، وكم من أعلام للشعر العربى لو كان التصوير والنحت رائجين لدى العرب رواج الأدب والشعر لا نصرفوا إليهما دونه أو لمارسوهما معه

ولقد كتب الأستاذ الفاضل محمود خيرت فى الرسالة أخيراً يثبت وجود التصوير لدى العرب فلم يَعْدُ أنْ أثبت أنه كان فى حالة أولية لا يُفتخر بها ولا يغتبط : فان الفن الذى لا ترى له باقية ولا يمكث له أثر فى أدب اللغة وكتبها ، ولا يتوصل إلى إثبات وجوده إلا بشذرة شاردة فى صحيفة من كتاب ، لا يكون فنا قد نال حظا من الرقى وخالط نفوس الأمة واستدعى اهتمام مثقفيها ، والحكاية التى رواها الأستاذ عن المقريزى تشهد بذلك ، حكاية المصورين اللذين رسما صورتين إحداهما كأنها داخلة فى الحائط والأخرى كأنها خارجة منه : فانّ تفاخر الرجلين بهذا العمل الضئيل ودهش الوزير له وإسباغه عليهما المنن من أجله ووقع القصة من نفس المؤرخ حتى أثبتها فى كتابه ، كل ذلك لا يدل على إرتقاء الفن فى ذلك العصر بل يدل على كونه فى حالة بدئية ، وعلى ندرة المصورين المجيدين بل المتوسطى الحظ من الاجادة ، وكلام المؤرخ كله يدل على أن التصوير الذى عرف لذلك العهد لم يتعد الصناعة ذات الغرض العملى التى يزاولها الصُّناع كما يزاولون النقش والطلاء ، ولم يرق إلى مرتبة الفن الخالص المنزه عن الأغراض العملية

إن صور المدارس الايطالية والهولندية وغيرها منتشرة فى الأقطار تملأ المتاحف وتتحدث عن نفسها وعن رقى الفن عند أهلها قبل أن تحدثنا عن ذلك مئات الكتب التى أُلفت فيها ، فأين آثار مصورى العرب التى تحدثنا عن مثل ذلك ؟ بل أين الكتب المؤلفة فيها ؟ بل أين الصور العربية التى كانت وحيا لشعراء العربية كما كانت الصور الأوربية وحياً لوردزورث وتنيسون وغيرهما ، أو كما كانت صور الأطلال الفارسية وحياً لسينية البحترى ؟

لن نظفر بشىء من ذلك إذا طلبناه ، ولن يسعنا إلا الاقرار بالحقيقة التى تطالع قارىء تاريخ العرب وأدبهم : وهى أن العرب كادوا أن يكونوا أمة ذات فن واحد هو الأدب وبخاصة الشعر الذى استوعب ملكات جل نوابغهم واحتوى دراسات جل مثقفيهم ذلك بأن العرب كانوا منذ جاهليتهم أمة لسان وبيان .

فخرى أبو السعود

خصـــومة

للأستاذ توفيق الحكيم

بعثت اليه أول النهار بالرسالة التى سماها « باقية على الدهر » ثم أويت آخر النهار الى بيتى فوجدت اسطوانات « بيتهوفن » التى استعارها منى قد ردها الى ، فعلمت أنها القطيعة . فوقفت واجماً فى مكانى وزالت آثار الغضب ولم يبق فى نفسى الا ألم عميق : لقد انتهى كل شىء بينى وبين الدكتور طه حسين . . ولم أستطع أن أقرأ شيئاً فى ليلتى ، وما أن أقبل الصباح حتى أوفدت الى الدكتور طه حسين صديقين كريمين يحادثانه فى أمر الرسالة ، فاذا به قد دفعها الى المطبعة ، واذا به يأبى الا أن يعلن الخصومة الى الناس . وحاول الصديقان عبثاً أن يحولا بينه وبين هذا الاعلان . وحاولا عبثاً أن يقنعاه بابقاء الخصومة سراً بيننا حتى يعرض أمرها على الأستاذ الجليل لطفى السيد بك وكلانا ولده وهو أولى من جمع بين القلوب النافرة لو كان الى ذلك سبيل . لكن الدكتور طه أراد أن ينتقم فتناول القلم ووضع قصة روى فيها ما كان من أمرى وأمره . .

قرأت القصة فدهشت . أى روعة وأى ابداع ! إنها فى ذاتها أثر من آثار الفن الخالد ، إنى أشهد أنها عمل فنى عظيم . فيها من سعة الخيال وروعة الأسلوب ما يضمن لها البقاء . إنها هى التى ستبقى على الدهر

لقد أعجبت حقيقة بهذه القصة اعجاباً شديداً . وهى عندى من أقوى ما كتب الدكتور . ولقد أنسانى إطارها الأدبى ما احتوته

من اتهامات قاسية ، وماذا يهمم ؟ إن شخصي ليس يعنيني كثيراً ، كما أنه ليس يعني صديقي الدكتور منذ اليوم . انما الذي حفلت به حقيقة وأحفل به الآن ، هو تلك القطعة التي تشيع الحرارة في جوانبها ، ويعلي أسلوبها بمرارة مؤلمة . قطعة لا ينساها من يقرؤها . وأغلب ظني أن الدكتور قد أصر على نشرها لأنه يعلم انه قد كتب شيئاً جميلاً : وانى الآن لأرضى أن يضحي شخصي الزائل في سبيل ظهور هذه القطعة الباقية . على أن القارئ وقد فرغ من القصة لابد يسأل نفسه : ما كل هذا الذي بين توفيق وبين الدكتور ؟ وانى أمد القارىء بالجواب فأقول : لا شيء في رأيي غير صداقة لا يمكن أن تزول لأنها صلة بين قلبين اجتمعا على حب الجمال الاعلى : جمال الفن والحقيقة ، ولئن قامت خصومة بيننا اليوم أو في الغد ، فهي خصومة من أجل الرأي والتفكير ، إن الشخصية الحرة هي كل ما يحتاج اليه الأديب الحقيق . ومهما يكن من قيمة الصداقة الأدبية العظيمة لا ينبغي أن تفتات على هذه الحرية . إن الدكتور طه حسين العميد الرفيع المقام ، والزعيم الجليل الشأن في أدبنا العربي الحديث يفهم هذا حق الفهم . وإنه ليعلم أني أقدره أحسن تقدير وأضعه من نفسي في أسمى مكان وأحفظ له على الزمن ما أسدى إلي من جميل ، ولا أنسى أنه هو الذي ألقى الضوء على وجودي . غير أنه يخطىء إذا فهم أن صداقتي له معناها التزام موافقته على كل رأي أدبي يبديه ، والتسليم والتأمين على كل ما يخرج من قلمه أو من فيه . ان الحكم المطلق إذا صلح في دولة السياسة فهو لا يصلح في دولة الأدب . وانى لا إخال صديقي الدكتور طه نفسه يرضى لي أو يرضى لفني وتفكيري هذه الحرية المقيدة . هذه هي كل الخصومة التي بينه وبيني . فهو قد استاء مني إذ عارضته في بعض آرائه في مقالات نشرت في «الرسالة» أو في « المصور » وفاته أني أجد لذة عقلية في معارضة منطقه السليم وآرائه المستقيمة دون أن أحفل بالنتائج . ولقد استاء كذلك مني يوم أخرجت الطبعة الثانية من « أهل الكهف » بغير مقدمته ، وعقيدتي أنه على حق في هذا الاستياء لو أنه فهم من تصرفي أني قصدت خدش كبريائه ، أو أني رأيت أحداً غيره أولى منه بهذا التقديم

أما وقد فهم أني لم أقصد هذا ولا ذاك ، وأن الحقيقة لا تعدو أني شخص بسيط لا أمقت شيئاً في الأدب مثل المقدمات ، وأني روح حر يأبى أن يقيد نصوصه بتفسيرات ، فضلا عما قام في ذهني يومئذ من ابطائه أنه غير جاد في وعده بالمقدمة . فهل تراه يصر بعد ذلك على اتهامي بسوء القصد ؟ . اني أحب الحرية ، حرية التصرف ، وحرية الكلام ، وحرية ابداء الرأي . وأعتقد أن أثمن كنز يغدقه المجتمع على رجال الفن هو « الحرية » ، وأعتقد أن خير هدية أهديها صديقي العزيز علي ، هي « الحرية » ولقد بلغ من اخلاصي في صداقتي لطه حسين أن أعطيته «حريتي» . فهو لن ينسى أني ما أتصرف في عمل أدبي بغير رأيه ، وما استشارني أحد في أمر يتصل بكتبي إلا أحلت الأمر عليه ، وانتظرت كلمته فيه . على أني أحب من جهة أخرى أن أستعير بعض هذه الحرية أحياناً لأناقشه في فكرة من الفكر ، أو أحاوره في مسألة ، أو أرد عليه في مقال . فأنا كما يعلم الدكتور طه ذو طبيعة لا تسير على نظام .

إني أعطي كثيراً ثم آخذ فجأة ، ثم أعود فأرد ما أخذت . وعلى صديقي أن يكون رحب الصدر ، سخي النفس كمصرف فتح لي فيه حساب جار . وإني أشهد أن الدكتور طه يحمل نفساً من أنبل النفوس وأندرها ؛ ولقد سجلت هذه الشهادة في قلبي قبل أن أسجلها في كتابي الفرنسي الذي بعثت به اليه منذ شهرين . غير أن الدكتور لم يعرفني حق المعرفة ، وأراه يأخذ بعض تصرفاتي على سبيل الجد ، حيث لا ينبغي أن تؤخذ على سبيل الجد . ولست أدري ماذا كان يضيره لو أنه غضب ما شاء من رسالتي العنيفة ثم مزقها دون أن يحفل بها ، ودون أن يعلن أمرها للناس ، ودون أن يدخل الناس بيننا ؛ وهو يعلم لو رجع الى قلبه أن لا شيء في هذا الوجود يستطيع أن يحول بيني وبينه ، ومع ذلك فان هذه الرسالة الغريبة قد أدت الى الأدب العربي أجل خدمة ، فهي التي ألهمت الدكتور كتابة قصة من أروع القصص ، وإني أؤكد للدكتور أنها خير نموذج للون جديد في الأدب كان ينبغي أن يوجد . وأخشى أن تحدثني نفسي بتكرير فعلتي كلما تاقت نفسي الى متعة فنية ، وكلما آنست في انتاجنا الحديث فراغا .

وبعد ، فيا صديقي الدكتور أنا محزون حقاً . فقد فكرت ، فاذا خطيئتي بديهية ، فقد كان يجب على الأقل أن أستشيرك قبل أن أبعث بتلك الرسالة . فماذا ترى في موقفي منك ؟ ويزيدني حزناً لطفك حين تتجاوز في سهولة وكرم عن كل هذا .

إنما أنت في حقيقة الأمر فنان كبير ، فنان حقا . وإني لأعترف بأني لم أمنح هذه النفس ، ولست أنا خليقاً بالفن ولا بك .